تأثير الصلح الحسني

في الجهاد الحسيني

السيد جعفر مرتضى العاملي

لقد جاهد الإمام أمير المؤمنين(ع) الناكثين، والمارقين والقاسطين... ثم كان ما يسمى بـ «**صلح**» أو عقد وعهد الإمام الحسن(ع)؛ الذي ألجأته الظروف إلى عقده مع معاوية.

واللافت: أن هذا العهد قد حقق إنجازاً عظيماً على صعيد تأكيد الحق، وترسيخ الشرعية، فيما يرتبط بإمامة أهل البيت عليهم السلام، وسلب ذلك عن الطرف الآخر، وانتزاع اعتراف خطي منه بأنه باغٍ ومتغلب، حين أكدت بنوده على:

١– أن الحق لا بد أن يعود للإمام الحسن (ع)، ثم من بعده للإمام الحسين (ع).

٢– أن ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده.

٣– أن لا يقيم الإمام الحسن (ع) شهادة عند معاوية.

٤– أن لايسميه أمير المؤمنين.

٥– أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه.

٦– أن لا يذكر علياً إلا بخير.

٧– أن يكون أصحاب علي وشيعته آمنين، حيث كانوا من أرض الله.

٨– أن يكون الناس جميعاً آمنين حيث كانوا من أرض الله.

وثمة شروط أخرى ذكرها المؤرخون أيضاً.

وقد كان معاوية يعلم أن نقض أي بند من هذه البنود سيحرمه من صفة الشرعية، وفقاً لما تعهد به من أهلية الاستمرار في ذلك الموقع.

وقد أعطى معاوية هذه الشروط، وهو يرى نفسه أنه الأقوى، وأنه هو المنتصر، وخزائن الأموال بيده، والجيوش تحت إمرته، والناس رهن إشارته.. ومعه ومن ورائه الأخطبوط الأموي المنتشر في طول البلاد وعرضها، الذي ما فتىء يعمل على هدم ما يبنيه علي وولده، وعلى تثبيت أمر معاوية وترسيخه.

وفي مقابل ذلك، فإن جيش الإمام الحسن (عليه السلام) كان مفكك العرى، متفرق الأهواء يضم حتى فلول الخوارج، الموتورين على يد أبيه أمير المؤمنين(ع)... وقد ظهرت في هذا الجيش الخيانات الكبرى، حتى من أقرب الناس إلى الإمام الحسن (عليه السلام) نسباً، وهو عبيد الله بن العباس الذي ذبح له عمال وأنصار معاوية طفلين، ولكن ذلك لم يمنعه من بيع دينه لمعاوية بمليون درهم فقط، حيث نسي ولديه، بعد أن نسي ربه، وخان إمامه.

واللافت أن بنود هذا العهد تبطل أمر معاوية، حتى قبل أن يبدأ؛ إذ إننا لو أخذنا بنداً واحداً من هذه البنود، وهو البند الذي يشترط، أن لا يقيم الإمام الحسن (ع) شهادة عند معاوية، فإن هذا البند الذي لا يخطر على بال أحد أن يذكره في صلح بهذه الخطورة، تحقن به دماء ألوف من المسلمين، ولا يخطر على بال أحد أن يكون هناك حديث عن إقامة شهادة عند قاض، قد لا يحتاج إليها على مدى عمر الإنسان كله، ولو لمرة واحدة، فضلاً عن أن يسجل ذلك في هذا الصلح الخطير.

نعم إننا لو لاحظنا ذلك لرأينا: أن معاوية يقبل بأن لا يقيم الإمام الحسن(ع) عنده حتى الشهادة، مع أنه يعلم: أن الشهادة قد لا تزيد على حفظ حق إنسان مّا في أرض، أو فرس، أو الاقتصاص للطمة أو جرح.

وذلك الشرط إنما يعني إبطال أمر معاوية من أساسه، حتى قبل أن يتصدى ويمارس أمور الحكم؛ لأن معنى هذا الشرط أن معاوية:

إما غير قادر على معرفة أحكام الله، ولو في مثل هذه الأمور الجزئية والبسيطة، فكيف يتصدى إذن لموقع خلافة الرسول(ص)، والذي يعني لزوم أداء مهماته(ص) في تعليم الدين، وبيان شرائعه وأحكامه، وفي التصدي للشبهات، وحل المعضلات؟

وإما أن معاوية كان يعرف كيف يقضي بين الناس – لكنه لم يكن مأموناً على القضاء بالحق، فمن لا يؤمن على القضاء على فرس، أو دار، أو لطمة، أو نحو ذلك، فهل يؤمن على دماء الأمة، وأعراضها وأموالها، وعلى دينها ومستقبلها؟

وإذا كان معاوية لا يستطيع، أو لا يؤتمن على القضاء بهذا المستوى، فكيف يفي بتعهداته بالعمل بالكتاب والسنة؟

وإذا كان هو المؤسس والأساس لدولة بني أمية، فقد اتضح أن هذا الأساس لا يملك ما يؤهله لهذا الموقع باعتراف منه، وبتوقيع عهد وعقد مع من ينكر له أي حق فيما يدعيه. ثم إنه يسجل ذلك، ويوقع عليه في مقام لابد له فيه من وضع النقاط على الحروف بكل دقة وحرص... وحيث لا مجال للتغاضي، ولا للغفلة ولا للتسامح..

فإذا كان هذا البند يعطينا ذلك كله، فما بالك بسائر البنود؟ مثل أن لا يسميه الإمام الحسن (ع) بأمير المؤمنين، فمن كان رأس أهل الإيمان، لا يرضاه أمير المؤمنين، فهل يرضاه أميراً له؟

كما أنه هو بنفسه يسجل: إنه ليس لأحد من ولده، ولا من قومه أي حق في هذا الأمر بل الأمر يرجع إلى الحسن، ثم للحسين (ع).

وبعدما تقدم يتضح: أن إمامة الإمامين الحسن والحسين (ع) تصبح مفروضة ولازمة، بمقتضى جميع الأعراف، وعند سائر الأمم.

فالحسنان (ع) بنظر المسلم الملتزم إمامان: قاما أو قعدا. بمقتضى نص رسول الله(ص).

والحسن(ع) هو وصي أبيه سلام الله عليه، كما سجله لنا التاريخ أيضاً وذلك يكفي حجة على من يرى لزوم العهد من الخليفة السابق للاحق.

أضف إلى ما تقدم: أن هذا العقد الذي تم بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية لابد من الوفاء به حتى عند أهل الجاهلية، بل إن كل المجتمعات الإنسانية حتى التي لا تدين بدين أصلاً تحتم الالتزام به، ولا تجيز نقضه؛ وذلك لأن المجتمعات الإنسانية تعتبر الوفاء بالالتزامات والعهود والعقود أساساً لبناء حياتهم في مختلف المجالات، حتى السياسية والاجتماعية منها، وعلى وفق هذه الرؤية، ومن هذا المنطق تنظم علاقاتها بالأمم والشعوب، والجماعات. ولا تجد أحداً يجيز لأحد الطرفين نقض العهد والعقد، إلا بالتراضي والتوافق، والاتفاق مع سائر الأطراف.

يزيد هو الباغي:

وبذلك يتضح لكل أحد وفق هذا المنطق الشرعي، والعقلي، والعقلائي، والإنساني، أن يزيد بن معاوية هو الباغي على الحسين(ع)، وهو الخارج عليه، حتى لو أعلن أبوه معاوية نقضه للعهد، فإن، العهد لا ينتقض بذلك.

بل إن العهد نفسه قد سلب معاوية حق نقض العهد لو توهم جاهل أن له حق في ذلك. وذلك حين صرح بقوله: ولا يحق لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده.

فترة تأسيس الدين:

ومن جهة أخرى نقول:

لقد كانت الفترة التي تلت وفاة رسول الله(ص)، هي فترة تأسيس الدين، وترسيخ دعائمه وتقرير أحكامه وشرائعه، وسياساته وقيمه. فكل ما يقال ويمارس في هذه الفترة، سوف يصبح جزءاً من الدين وستتداوله الأجيال، حقاً كان أم باطلاً.

وحتى لا يبقى الباطل وحده هو سيد الموقف، والمطروح للتداول، كان لابد لأمير المؤمنين (ع) والخلص من أصحابه من أن يشاركوا في هذا التأسيس، وأن يطرحوا للناس الحق الذي يسعى الآخرون، إما لتجاهله والابتعاد عنه، أو للعبث والتلاعب به.

ولذلك دخل عمار، وسلمان، وحذيفة، ومالك الأشتر، وأضرابهم في مناصب الدولة، فتولى عمار الكوفة، وسلمان المدائن، وحذيفة كان قائداً للجيوش الفاتحة، في فتوح نهاوند المعروفة بفتح الفتوح، وكان هو السبب في زوال ملك الأكاسرة. وشارك الأشتر في الحروب معهم، وشترت عينه فيها فقيل له الأشتر، ولا شك في أن ذلك كان برضى من أمير المؤمنين(ع)، أو بتوجيه منه.

وقد كان(ع) يسعى لحفظ التوازن والهدوء في العلاقة مع الخلفاء. وكان يحضر مجالسهم، ويشارك في بيان مسائل الدين، وحل معضلات الأمور، حتى لقد كثر قول عمر: لولا علي لهلك عمر. ولكن الأمر كان أعظم من ذلك أيضاً.

فقد كان الخلفاء يدّعون: أن لهم ما للرسول(ص)، وأنهم يقومون بما يقوم به، فلهم القضاء والحكم، وقيادة الجيوش، وتعليم الناس أحكام دينهم، وتربيتهم، وسياستهم وتدبير أمورهم. تماماً كما كان ذلك لرسول الله(ص) بل لقد زعموا أن لهم حق التشريع في الدين والفتوى بآرائهم فيه.

وقد مارسوا ذلك بالفعل، ومنعوا الناس من رواية حديث رسول الله(ص)، ومن كتابته وتدوينه وحبسوا كبار الصحابة بالمدينة، ومنعوا الناس من السؤال عن معاني القرآن، ومن كتابة التفسير. ثم إنهم قد عملوا على أن يضفوا على أنفسهم هالة من القداسة، لا مجال لاختراقها، فكان من آثار هذه القداسة أن أصبحت سياسات الخلفاء هذه ديناً يدان به وشرعاً يتبع...

فكان لابد من إسقاط هذه الهالة... وقد قام أمير المؤمنين(ع) بما كان يمكن القيام به في هذا السبيل، فأعاد التأكيد على الخطوط العامة، وأصحر للناس بالعقائد الحقة، وبين سياسات الإسلام تجاه كل هذا الواقع الذي يواجهه، وحارب الناكثين والمارقين والقاسطين.

وجاء الإمام الحسن(ع) ليخطو الخطوات التي أتيح له أن يخطوها أيضاً في نفس هذا الاتجاه فأنجز الصلح الذي تحدثنا عنه آنفاً.

ولم يبق إلا أن يحدث الزلزال الذي فرض على الأمة أن تراجع حساباتها، بعد أن سقط القناع المزيف الذي حاول الطامعون أن يستروا به حقيقتهم.

وأفاق الناس على واقعهم المرير، ليجدوا أن ثقافة أهل الكتاب هي التي تهيمن عليهم، بعد أن سلبت منهم معارف الإسلام، ليجدوا أنهم يقدسون أشد الناس انحرافاً عن الله، أو أعظمهم طغياناً عليه. وليجدوا أن الذين يقدسونهم ليسوا هم الأمناء على وحي الله سبحانه وتعالى، ولا هم العالمون بشرايعه سبحانه. وليجدوا، وليجدوا إلى ما لانهاية.

وقد جاءت حركة الإمام الحسين(ع) الجهادية بصورة لا تقبل التأويل، ولا مجال فيها لإثارة أية شبهة أو لبس، فأسقطت هالة القداسة، وفرضت على الناس أن يعيدوا النظر في كل شيء، وأن يبحثوا عن الإسلام وأهله، وأن يميزوا بين مصادر المعرفة من جديد، وأصبح هذا الأمر هو الوظيفة المفروضة على كل إنسان إلى يوم القيامة.

لماذا الحسين ولماذا على يزيد بالذات:

هذا ولقد كان الناس يعرفون الكثير مما أخبر به النبي(ص) عن مصير أبي عبد الله الحسين(ع) وكانوا قد عرفوا أيضاً الحسين(ع)، وأخاه وأباه سلام الله عليهم أجمعين. عرفوهم في ممارساتهم وفي توجهاتهم، وفي كل حالاتهم.

وعرفوا في مقابل ذلك: رموز الجهة الأخرى وأهدافها، وسيرتها، ووقفوا على حالاتها، وكذلك على حالات وسير وأخلاق خصوم أهل البيت(ع) بصورة عامة، الذين يريدون أن يكونوا ملوكاً جبارين.

والناس أيضاً... قد عرفوا بنود صلح الإمام الحسن(ع) مع معاوية، وقرأوا على صفحات الواقع والتجربة، والمعايشة القريبة، خصائص الشخصية العلوية، والحسنية، والحسينية. وهم أهل بيت النبوة سلام الله عليهم.

ثم إن الناس، قد قرأوا أيضاً على صفحات الواقع والتجربة، والمعايشة القريبة خصائص خصوم أهل البيت(ع)، من أمثال معاوية ويزيد وغيرهما.

ثم إن الناس كذلك... قد رأوا بأم أعينهم كيف أن هذا الباغي والمعتدي، والمدعي لمقام خلافة الرسول(ص) لا يتحمل حتى أن يرفض إنسان واحد الانقياد له، مع أنه هو المعتدي على حق هذا الإنسان، ومع أن أباه بالذات؛ قد سجل أن لا حق له، ولا لأحد من ولده في هذا الأمر، وأنه الحسين بالذات هو صاحب الحق.

نعم، إن يزيد لم يتحمل حتى أن يرفض هذا الإنسان بالذات الانقياد له، فراح يلاحقه بثلاثين ألف مقاتل إلى قلب الصحراء، ليقتله مع أهل بيته، وثلة يسيرة جداً من أصحابه، ويسبي نساءه وأطفاله.

رغم أنه من أهل بيت النبوة، وسيد شباب أهل الجنة الحسين(ع) بالذات، فكيف -يا ترى- سيتعامل مع سائر الناس، لو بدرت منهم أية بادرة مهما كانت تافهة وصغيرة؟

المعايير هي الأقوى والأبقى في الأمة:

ثم إن الإمام الحسين(ع)، قد أعطى للمعايير الفطرية والعقلية، والإنسانية قوتها وفاعليتها حين قال للناس في بداية حركته الجهادية: «**إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم. ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله**».

ولتوضيح هذه الكلمة الشريفة نقول:

إنه لا ريب في أن قاتل النفس المحترمة لا يمكن أن يكون هو الأمين على دماء الناس، فهل يؤمن على أعراضهم وأموالهم؟ ثم على مصيرهم ومستقبلهم، ويصبح هو الحاكم المتصرف في ذلك كله؟ وهو لا يملك -بسبب معاقرته للخمر- في أوقات كثيرة حتى التوازن العقلي، الذي يحمي قراره من الضعف والرعونة، ومن أن يكون قراراً مدمراً للأمة، أو ملحقاً بها وبمستقبلها أضراراً فادحة على أقل تقدير...

هذا فضلاً عن أن شارب الخمور، لا يمكن أن يحفظ الأسرار الخطيرة التي منها ما يلامس مستقبل الأمة وحياتها، حيث لا يجد الذي يتعاطى المسكرات أي وازع ورادع، من عقل أو دين عن البوح بها لغير أهلها.

ثم إنه إذا كان معلناً بالفسق أيضاً، ولا يخجل بفسقه وفجوره، فإنه لا يعتبر المنكر

منكراً، ليتصدى لدفعه وإزالته من الواقع العام، كما أن من يكون كذلك لا يتوقع منه أن يربي الأمة على مكارم الأخلاق. ويغرس فيها خصال الخير والصلاح ويقودها إلى مواقع العزة والكرامة والسؤدد.

وفي الطرف المقابل نجد: أن الحسين(ع) هو من أهل بيت النبوة، على حد هذا التعبير المنقول عنه(ع). واختيار كلمة النبوة، قد جاء ليشير إلى الوحي الإلهي، الذي هو مصدر المعارف والعلوم الغيبية، ولم يقل: «أهل بيت النبي» حتى لا يتوهم أن المراد الإشارة إلى الارتباط به كشخص، لأجل نسب، أو سبب عادي، قد يناله أناسٌ آخرون.

فإذا كان يزيد أو غير يزيد يدّعي أنه خليفة لرسول الله(ص) وله صلاحياته، فمن أين يمكنه أن، يثبت لنفسه هذا المقام، إلا عن طريق الوحي والنبوة؟ وأهل بيت النبوة(ع) ينكرون عليه ذلك...

والحسين(ع) هو المصدر والمرجع للناس كلهم، وهو الذي لا بد أن يؤخذ منه التشريع والأحكام الإلهية؛ لأنه معدن الرسالة، أي الأصل والمنشأ الذي تؤخذ منه سنن وأحكام الرسالة، ومضامينها خالصةً من الأغيار، وصافية من الشوائب، فلا يستطيع يزيد ولا غير يزيد أن يرد عليه ما يخبر به من أحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ وشرائعه؛ لأنه أعرف الناس بما يوافق الشرع أو يخالفه.

والحسين(ع) أيضاً هو من نشأ في بيت الطهارة، والقداسة والإيمان، البالغ أعلى الدرجات حتى صار بيته مختلف الملائكة. ولا يستطع أحد أن يدّعي لنفسه، أو لبيته هذا المستوى من الطهارة أبداً، فهل يستطيع أن يدّعي ذلك يزيد الذي نشأ في بني كلاب، حيث لا دين ولا هدى، بل مفاهيم الجاهلية وأحكامها، هي المهيمنة، والطاغية. والأهواء والشهوات والمآثم هي السلوك العام، وهي القائد والسائق في مختلف الحالات وفي شتى المجالات؟

بنا فتح الله وبنا ختم:

ويستمر الإمام الحسين(ع) في كلماته الهادية تلك، فيؤكد على أن الله سبحانه قد فتح أبواب الهداية والصلاح، والإصلاح للأمة بالحسين، وبأهل بيت النبوة(ع)، وسيختم بهم عليه السلام على يد ولي الله الأعظم الحجة القائم المهدي(عج)، فما معنى أن ينازع يزيد، أو غير يزيد هؤلاء الصفوة الذي يمثلون خط الهداية الإلهية للبشر؟

وإذا كان يزيد وغيره ممن سبقه أو لحقه من غير أهل البيت يستطيع أن يدّعي للناس

أنهم ليسوا أولى بالنبي(ص) ولا أعرف بشرائعه، ولا أليق بمقامه، ولا أجمع للصفات والمزايا المطلوبة في من يفترض فيه أن يأخذ موقع الرسول(ص)، ويضطلع بمهماتها، فقد يجد من يصدقه في ذلك. ولكن هل يستطيع أن يدّعي هؤلاء ذلك في مقابل الحسين(ع)، ولا سيما بملاحظة كل هذا الذي ذكرناه، وبملاحظة ما ذكرناه من دلالات صلح الإمام الحسن(ع).

وحسبنا هذا الذي ذكرناه، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.